التناص والتشكيل الجمالي في الشعر المغاربي المعاصر مقاربة تطبيقية في نماذج شعرية

The symmetry and aesthetic formation in contemporary Maghreb poetry is an applied approach in poetic models

كمال أونيس *

د. عبد الخالق بوراس ♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/17	تاريخ القبول: 2021/05/03	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

إن التناص مصطلح نقدي أطلق حديثاً وأريد به تعالق النصوص وتقاطعها، وإقامة الحوار فيما بينها، عن طريق التناص المضموني بتوظيف الأفكار والمعلومات أو التناص الشكلي بتوظيف الألفاظ والعبارات والتراكيب، مما يجعل النص الواحد يشعُ بنصوص أخرى، وهو درجة رفيعة من الإبداع وميزة من مميزات النص الأدبي عامة والشعري خاصة، وهذا ما يلاحظ على الشعر المغاربي المعاصر الذي أصبح نتاج تفاعل العديد من الخطابات الأدبية السالفة والمتزامنة، وبهذا التفاعل الخصب بين النصوص تبتكر الأعمال الأدبية، وبالكشف عن هذه النصوص الغائبة وطريقة توظيفها نتعرف على مدى أصالة الفنون القولية وما حوته من جدة وابتكار.

الكلمات المفتاحية: التناص – تعالق – اقتباس – الشعر المغاربي –التشكيل.

Abstract:

Intertextuality is a critic term which been called recently on the correlation and cross over of the textual, and building dialogue in between, through the substantive Intertextuality by using ideas and informations, or the formal intertextuality by using terms and structures, which make the one

المؤلف المرسل : كمال أونيس : ouniskamal@gmail.com

*** جامعة الشريف مساعدية سوق أهراس ouniskamal@gmail.com**

♣ جامعة العربي التبسي تبسة، abdelkhalek.bouras@univ-tebessa.dz

textual shines with other ones, and It's a high degree of creativity and an advantage of the literary text generally and poetic especially, and that what's been noticed on the modern maghrebian (west arab) poetry which became the result of the interaction between too many old and simultaneous literary speeches, and due to this fertile interaction between the many textual the literary works is been invented, and due to exposing this absent textual and the way to use it we explore the range of the authenticity of telling art and what it contains of modernity and creativity.

***Key words**: Intertextuality - correlation –quote- maghrebian poetry- fotation..*

مقدمة:

إن المطلع للمأثور من الأدب، وماي موج بهيمنته من ظواهر ومصطلحات نقدية حداثية يسترعيه مصطلح التناص* L'intertextualite، وهو حضور النصوص الغائبة، والتي تمر عفويا بذاكرة القارئ العادي، دون قصد منه لاستحضارها، وهو حصيلة تفاعل نصوص سابقة ومتزامنة، تتحاور وتتصارع، بعد أن تمثلها المبدع وتفاعلت في نفسه، ومهمة الدارس التناصي هي فك نسيج هذه البنية النصية الجديدة، ومحاولة الرجوع بها إلى مكوناتها الأولى، لمعرفة الطريقة التي تمت من خلالها عملية صياغة النص.

وعند متابعة الخطاب الشعري المغاربي المعاصر عن كثب، قراءة وتذوقا، بدا لنا أن هذه التجربة الشعرية المعاصرة بحاجة إلى دراسة تناصية، لتفاعله مع نصوص غائبة سابقة عليه ومتزامنة معه.

فأين تتجلى الأصالة في الأعمال الأدبية؟ وهل التناص أصبح شرطا في العملية الإبداعية؟ وكيف تم توظيفه في الشعر المغاربي المعاصر؟

ومن خلال نظرية التناص، نلاحظ أنهار كزت عل فكرة أساسية، تتجلى في التخلي عن مقولة استقلالية النص، لأن النص سمته التناص، وخاصية من خصائصه، يمنحه نظامه الإشاري ويهبه قوة المعنى والتعدد الدلالي.

أولا: تجليات التناص في الشعر التونسي المعاصر ديوان " محمد السبوعي " نموذجا :

1- التناص مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف :

القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية، يشع بلفظه البليغ وبمعناه المبتكر، ويصور تقلبات القلوب وخلجات النفوس، وهو النص المقدس، الذي أحدث ثورة فنية على معظم التعبيرات التي ابتدعها العربي شعرا ونثرا.

وقد تحدى القرآن بلغاء العرب قديما أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ذلك، فانصرفوا عنه، ولم ينهلوا من منهله العذب لاستحالة النظم على نهجه.

وما لبث القرآن الكريم أن أصبح منهلا للشعراء العرب المعاصرين يقتبسون منه، لغنى معانيه وثراء دلالاته، إلى جانب الرافد التراثي والأسطوري والغربي والذاتي. وقد اخترنا ديوان "قمر مدهش في بهائه" للشاعر التونسي المعاصر: "محمد السبوعي"، لاستجلاء التناصات -ولو جزء منها- الموجودة في ديوانه، وكيف استطاع الشاعر أن يطوعها ويشكلها. فنجد على سبيل المثال لا الحصر؛ استغلال النص القرآني استغلالا فنيا دون الاقتباس النصي المباشر قوله في قصيدة "الظل" :

ليت لي ظل لا عدو

هاربا من، الى أي اتجاه...

ليت لي ما لا أراه...

سورة الكوثر اذ ترفو على سطح المياه...[1]

فالتناص القرآني يتجلى في سورة الكوثر ، قال تعالى:﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ سورة الكوثر: الآية 01

وهو توظيف فني امتص فيه معنى الكوثر، إذ في هذه الآية يخبر الله رسوله الكريم بما منَ عليه من جزيل العطاء يوم القيامة وهو نهر الكوثر . لقول الرسول الكريم: "فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم. فيختلج العبد منه فأقول: إنه من أمتي، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك".[2]

فشعر الشاعر كالكوثر في سطح المياه، كانسيابه في الفكر والقضايا العادلة، فهو يريد الكتابة بحرية وطلاقة، يعبر فيها عن مشاعره وطموحاته وقضايا الأمة، بترك أثر وتوجيه مناسب كظله يثني عليه، لا يحضر عليه من خلال فكره، وبالتالي يصبح عدوا له، فأراد أن يصبح شعره علما، يرفرف فوف كل وطن، كالكوثر بين جميع الفنون والأعمال الأخرى.

كما يوظف الشاعر العديد من آيات سورة الشعراء، من قوله تعالى: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون ۝ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ۝ وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾. سورة الشعراء: الآية 224-226.

ويوردها في قصيدة "ذات صحراء" :

يغفر الله للشعراء جميعا

يقولون ما لا يقال

يهيمون في كل واد.[3]

ويبدو أن التعامل مع النص الغائب كان تعاملا سطحيا من حيث تجليه، لأنه لم يخف مصدر إلهامه، لكن مطاوعته للآيات غطت عليه بانزياح المعنى العام إلى رؤية الشاعر ؛ فلم يستثن الذين آمنوا من الشعراء، وأبدل "يفعلون" بـ: "يقال" ، وقدم في شعره الآية الثالثة على الثانية، و "يهيمون" على "واد" ، إذ كل الشعراء -في رأيه- الذين لا يصلحون المجتمع والأمة بشعرهم؛ من الأفضل أن لا يقولوه، لأنهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم.

فالتناص في المثالين يأخذ مستويين، الأول دلالي من خلال معنى التكاثر، والثاني إشاري من خلال صفات الشعراء.

يأتي الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، من حيث إشراق العبارة، وفصاحة اللفظ، وبلاغة القول، واستحضاره أصبح سنة حسنة عند الشعراء المعاصرين، ونستشف التناص مع الحديث النبوي الشريف في قول الشاعر في قصيدة " مت يا أبي " :

بفداحة التاريخ. لا تحزن سينتصر الموثق في

الصراع مع المؤرخ سوف يعثر بعضهم عني هناك

على حدود الصين

أبحث في علوم الدين،

عمن صاغ محنتنا

تعبنا يا أبي.[4]

فالأبيات تحيل إلى الحديث الشريف: "أطلبوا العلم ولو في الصين" ، فهو جلي واضح تماشى مع رحلة الشاعر؛ للبحث عن جذور وسبب انحطاط وانهزام الأمة، والتي لن تزدهر إلا بالرجوع إلى تمسكها بدينها وتطلعها إلى العلم والأدب.

2- التناص مع الأسطورة والتراث العربي:

بعد العصر الحديث عصر استخدام الأساطير بكثرة، نتيجة تأثر الشعراء العرب بالشعر الغربي، واطلاعهم على أساطير العالم القديم في الحضارات المختلفة، وما تحتوي الأساطير من جاذبية خاصة، فوظفوا الأسطورة، وحولوا بعض النصوص الأسطورية وتفاعلوا معها.

"واتفق معظم شعراء الحداثة أن الاهتمام بالأسطورة لا يعني بأي حال العودة إلى المراحل البدائية في حياة الإنسان، بمعنى أن الشعراء المعاصرين لا يريدون الأساطير الأولى نفسها، لقد تفهموا روح هذه الأساطير فصدروا فيها ينتجون من فن وأدب عن روح أسطوري، ومن ثم برز في أعمالهم منهج الأسطورة القديمة، وإن ظل نتاجهم يتميز بطابع الجدة".[5]

وأولى القصائد الأسطورية عند "محمد السبوعي"، نجدها تستحضر أسطورة بدء الخليقة، إذ يقول في قصيدة "ظل":

في بلاد الشمس صدقت كثيرا ما رواه.

شيخنا الأعمى عن الأفعى وعن تفاحة الإغواء.

لا كوثر في المنفى...

فما لي لم أنخ بعد رحالي...

وأحلق في رؤاه.[6]

إذ تحيلنا عبارة "تفاحة الإغواء" إلى أسطورة بدء الخليفة، "أسطورة آدم وحواء" وينبغي ألا يفهم المتلقي من أن كلمة أسطورة تعني خرافة، وإنما الأسطورة هي حقائق عند معتقديها، كما أشار إلى ذلك ميرسيا إلياد في كتابه :"les aspects du mythes"حيث تبدو المرأة في الأسطورة الأصلية مصدر الغواية والشقاء، فهي السبب في الشقاء والهبوط من الفردوس".[7]

فالشاعر لم يقصد التفاح في حد ذاته، بل هو تفاح تخرج منه رائحة الغريزة والجنس ولاشك في أن الشهوة هي الواصلة بين النص السابق والنص اللاحق، فالأولى شهوة الأكل، والثانية شهوة الجنس، فعنصر الهبوط والتدني هو النتيجة الجامعة بين أسطورة بدء الخليفة والأسطورة الشعرية، هبوط من الفردوس إلى الأرض وهبوط من الشمال إلى الجنوب. ولعل محمد السبوعي يرمز من خلال تفاحة الإغواء إلى كثرة معاناته في المنفي، واشتياقه إلى كوثر محبوبته بإخلاصه لها.

- كما نلاحظ استحضار الشاعر لجزء من " أسطورة أوديس " ، وهو استحضار مبهم لايحيلنا إلى الأسطورة مباشرة، لكن هناك بؤرة مركزية، وهي "منذ عشرين عام" التي تحمل في طياتها دلالات، تحيلنا إلى نص سابق، إذ نجده في قصيدة "حانة الأغلبي" يقول:

لم أزل عاشقا
منذ عشرين عاما.
يساورني طيفها في المنام.
يقبلني في اللثام
ويمضي كطيف أليف
لمخدعه في رفوف الغمام.[8]

فالشاعر يتناص مع أسطورة غربية، وهي مغامرة أوديس، والتي دامت عشرين سنة في البحر، عائدا فيها إلى وطنه، وما لقاه من مخاطر وكيد الكائدين عليه، وتركه لزوجته "بانلوبي" تنتظره وفية له، مشتاقا إليها بحلم بها.

أما عشق الشاعر، فهو في الكتابة الشعرية التي بدأها منذ عشرين عاما، وما نجم عنها من حقد السلطات عليه، وكثرة معارضيه، مما جعله يحلم بالكتابة التي سرقت النوم من عينيه، وجعلته غريبا ومحاصرا في وطنه.

إن الدارس للخطاب الشعري المعاصر يجده مسكونا بذاكرة التاريخ والنصوص القديمة، التي يوظفها الشاعر في نصوصه ويتفاعل معها، ومن ثمة تتولد فاعلية الخلق الشعري، إذ نجد وراءه تراثا ضخما يأخذ منه ما يشاء، مما يناسب رؤاه الفنية، وفي ذلك بعث لترك الأمة.

ومن النماذج الشعرية التي وظفت التاريخ العربي القديم توظيفا تناصيا، قصيدة: "مت يا أبي" ، لشاعرنا التونسي "محمد السبوعي"، التي أعاد فيها كتابة قصة امرئ القيس التاريخية، حين ذهب لقيصر الروم ليعينه على أخذ ثأر أبيه، حيث أسقطها كصورة رمزية على الواقع العربي، ونكسة فلسطين. يقول:

كسرى بناصبنا العداء كأنا عرب الكتاب

وهرقل في نزواته.. يعد المدينة بالخراب.

للبيت رب يا أبي.

لقريش أن ترث الرسالة

فدع الحماسة للأمير، وقل غدا خمر، وتابع لعبة

السكر المثيرة، مذ أتانا الرب محمولا على سجف.[9]

فالشاعر يستحضر امرئ القيس المخمور الذي جاءه نبأ موت أبيه-مقتله- ولم يحرك ساكنا، وواصل في الشرب وقال قولته المشهورة: "ضيعني صغيرا، وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر، وغد أمر".[10]

ولعل حالته تجسيد لضياع صحوتنا بعد ضياع مجدنا، وعدم اكتراثنا لما يجري في فلسطين والعراق من مآس كل يوم، وضياع أراضينا واستيلاء اليهود عليها. وكذلك تجسد حالة امرئ القيس، حالة ملوك العرب وانشغالهم بالملذات، والحكم والسيطرة على الشعوب المغلوبة.

كما يستحضر الشاعر في البيت الأول عداء كسرى للعرب، خاصة ما فعله بالنعمان بن المنذر، وسيطرته على الحكام والملوك العرب، نجده متجسدا في سيطرة الدول الغربية على الدول والحكام العرب.

ثانيا: تجليات التناص في الشعر الجزائري المعاصر ديوان "يوسف شقرة" نموذجا:

1-التناص مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف :

لعل من أبرز الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين تفاعلوا مع النص القرآني الشاعر "يوسف شقرة" ، حيث نجده يستقي مصادر إلهامه من القرآن الكريم، ويعود هذا إلى حسه الإسلامي المتوهج، وإيمانه العميق بالقيم القرآنية السمحة، يقول:

دثريني يا قصيدة

و انفضي فوق جسمي التراب
فلعلي ذات يوم
أطلع زاهرا أو عقاب
أو لعلى أقرأ من تحت أنقاض الأرض قصيدي
فينوح الحمام وقد اشتد من قبل نعيق الغراب
أو لعلي أبعث فيكم جنينا ولحنا
حينما تأتي القيامة بالخطاب.[11]

يقف الشاعر في هذا المقطع من قصيدته: "بيان رئاسي رقم 03" على كلمة "دثريني" ،فهي إشارة فقط يستحضر فيها الآية الأولى من سورة المدثر، وما توحي به من ظلال، قال تعالى: ﴿**يا أيها المدثر**﴾. سورة المدثر الآية 01. لينطلق منها ويخاطبها ويحاور معانيها، انطلاقا من حالة حاضرة "المدثر: أصلها المتدثر، أبدلت التاء دالا وأدغمت في الدال بعدها فصارت المدثر، والمدثر من الدثار وهو كل ما كان من الثياب أو الكساء فوق الشعار وهو ما يلي الجسد من الثياب ، وقد تدثر أي تلقف في الدثار، والمعنى: يا أيها المتدثر بثيابه أو قطيفته عند نومه، أو يا أيها الذي تغشى بثيابه ونام ، وهذا خطاب ملاطفة ورحمة من الله تعالى لرسوله (ﷺ).[12]

هكذا يخبر الشاعر عن حالة "قصيدته" التي احتوت على حقائق، وعبرت عن واقع معاش لم يصرح به صراحة، فهي كالقناع يختفي وراءها صاحبها ليعبر عن مكبوتاته الإدراكية، فيجدها متنفسا لأفكاره وحلا لمعاناته، فتطوقه وتحتوي ثائرته التي تخرج في وقتها المناسب، فتبعث أفكاره من جديد ورؤيته للواقع بعد أن خمدت في جوفه، وحتى بعد وفاته. و استحضار سورة المدثر تحيل إلى الانبعاث وكان القصيدة هي الوحي الذي ينفض عن الشاعر غبار الكسل.

كما يستحضر الشاعر العديد من الآيات من قصة يوسف في القرآن، ثم ينشرها فيمتن قصيدة "الماء الكلام.. روح الختام":

يوسف لم يمت
يوسف في الجب لحب الأحبة
يبحث عن رحيل

يبحث عن صفصاف ونخيل
يحب إخوته وكل الأصدقاء
لم ينس أمه و أباه
ولأنه سوف يعود
صاحب الذئب في الجب
وأرسل قميصه الدموي للصابرين
وقال إني آت.. إني آت..[13]

والآيات التي اشتغل عليها الشاعر هي قوله تعالى: ﴿**لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين**﴾. سورة يوسف : الآية 10

وقوله: ﴿**قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ۝ **وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾. سورة يوسف : الآية 17،18

فالآيات تستجيب لتجربة الشاعر الحياتية، وما يعانيه الشاعر فيها من غربة وعزلة، كما تساير أحلامه الخاصة في تغيير واقعه، فاستعار قصة يوسف وما عاناه من إخوته وذل العبودية.

"ويرى أحد الباحثين أن قصة يوسف -عليه السلام - تحمل سحرا خاصا للأديب العربي الحديث، الذي شغف بتوظيف النص القرآني، لأنه يشكل جزءا أساسيا من المخزون الثقافي الجمعي للقارئ العربي، ويعد نصه بطاقة تعبيرية هائلة، وهذا التوظيف لا يقتصر على الشعر فقط، بل يشمل كذلك القصة والمسرحية، مما يسمح بدراسة تناصية للنص القرآني في كل فن من هذه الفنون "[14].

إن التناص مع الحديث النبوي الشريف في الشعر الجزائري المعاصر، يتولد من إعجاب شعرائنا بشخصية الرسول ﷺ، وبرسالته الإسلامية السمحة، لذلك نجد من يوظف الأحاديث النبوية الشريفة في شعره، فنجد قول "يوسف شقرة" في قصيدة : "رقصة الأرواح" يتناص مع حديث شريف يتجلى بوضوح في هذا المقطع:

وماتوا حبا فيه حتى اللحظة الأخيرة
يتوسدون الوعد والوعيد

لم يسعدوا بحور العين ولا حتى بخضراء الدمن
وماتوا نكاية في الزمن الرديء ولون المحار
وشكل البحار العنيد.[15]

هذا النص يحيلنا إلى حديث: "خضراء الدمن" ، قال رسول الله ﷺ :"إياكم وخضراء الدمن" قالوا وما خضراء الدمن قال: المرأة الحسناء في منبت السوء". دلالة "خضراء الدمن" في الحديث تنصرف في النص معان عديدة منها : (الرغبة، الشهوة، الفجور ...)،فالوفاء، والتضحية من أجل الوطن، تجعل الشخص لايتأثر بملذات الحياة وزخرفها، من زواج، أو متعة جنسية، أو منفعة مادية، بل لذته ومنفعته بسلامة وازدهار الوطن.

2- التناص مع الأسطورة والتراث العربي:

إن الأسطورة كانت وما زالت مصدرا لإلهام الكثير من الشعراء، على مر العصور، وذلك لما فيها من طاقات تعبيرية واسعة، لا يمكن تأديتها عن طريق اللغة البسيطة المباشرة، ففي الأسطورة أبعاد خيالية واسعة، تعمق من تأثير الشعر وتقوي من فاعليته، وتكسبه بعدا إنسانيا شاملا وواسعا، من خلال الحاضر بالماضين أي بالذاكرة الجمعية للإنسان، ومن خلال استحضار نماذج بدائية أكثر صفاء وتألقا وعفوية، وذلك رد فعل على الواقع المعاصر.[16]

وورد في المعجم الفرنسي المشهورle robert اتعريف للأسطورة كالآتي :" الأسطورة قصة خرافية عادة ما تكون من أصل شعبي، تصور كائنات تجسد شكلرمزي، قوى الطبيعة، وبعضا من جوانب عبقرية البشر ومصيرهم"[17]

ويبدو لنا أن الدارس للشعر الجزائري المعاصرة، لا يجد عنتا كبيرا في الكشف عن العديد من الأساطير التي وظفها شعراؤنا، كإحدى المصادر المعرفية التي تخدم بنية النص الشعري، ومقاصده الفكرية، ونلحظ حضور أسطورة "طائر الفينيق" في ديوان يوسف شقرة: "طقوس النار والمطر" جلية، في قصيدة " قصيدة أولى للموت والأحلام " إذ يقول في مقطع منها :

مازلنا نحلم أن نكون لهذا الوطن الموصد على قلوبنا
طيور الفنيق / ونوارس بحرية
لا تدري أننا بوم وببغاء

وجاء الغراب ناعقا

واهتزت العاصفة فارحة / باكية.[18]

وهذا ما يتمناه الشاعر، وهذا ما يصبوا إليه: الموت طلبا للانبعاث مثل طائر الفينيق، فالشاعر لا يطلب الموت من أجل الموت، بل من أجل الحياة، حياة جديدة ، تكسر نمط الحياة القديمة التي لا طائل يرجى منها.

فالأزمات والمحن لا تزعزعنا ولا تجعلنا وجبة سائغة لأعدائنا، وموت الشخص لا يعني موت الفكرة، إذ تبقى حية في قلوبنا تنبعث من جديد، حتى بعد موت صاحبها فينبعث الأمل من جديد أملا في مستقبل زاهر .

كما نلاحظ تناص الشاعر مع الأساطير الشعبية الجزائرية، ويتجلى ذلك في أسطورة "بنت جلال": أسطورة تعرفها منطقة سيدي خالد ببسكرة، تقول أن بنت جلا لجنية تتصور بأشكال مختلفة، تقتل الرجل فقط بالضحك عن طريق الدغدغة بعد غرس رأسه في الرمل إذ يقول في قصيدته "رقصة الأرواح" :

يا وطن الإغماء و الدمار والموت والحياة الجميلة الجحود

أحبك يا من تطاردني في أحلامي السعيدة الوعود

كبنت جلال في صورها الملتوية العديدة الغريبة

و الشكل الواحد الواعد الجديد.[19]

والشاعر يتوقف في هذا المقطع من القصيدة عن متابعة أسطورة "بنت جلال"، هولا يستعيدها ليسردها مرة أخرى، بل ينطلق منها ليخاطبها ليحاور معانيها، انطلاقا من حاضرة، هكذا يخبر الشاعر عن حالته، وعن حبه لوطنه الذي لن يتغير ولن يزول؛ بتغير حالة الوطن، والتي تشبه حالة بنت جلال" في أشكالها المختلفة التي تخرج بها للرجال فالمقصد واحد والأشكال متعددة.

الدارس للخطاب الشعري الجزائري المعاصر، يبدو له متن هذا الخطاب مسكونا بذاكرة التاريخ، التي تفاعل معها شعراؤنا ووظفوها في نصوصهم المقروءة، ومن ثمت ولدت فاعلية الخلق الشعري.

ومن النماذج الشعرية ليوسف شقرة التي وظفت التاريخ العربي القديم توظيفا تناصيا، قصيدة "رقصة الأرواح"، إذ نجد فيها تناصا جليا لحرب "داحس والغبراء" ، والتي دامت أربعين عاما، بين قبيلتي عبس وذبيان في الجاهلية، إذ يقول في مقطع منها:

وصرنا فحول القوم قبل الإخصاب
فأنجبنا داحس والغبراء
و أنجبنا الأمير الصنديد
و بنينا الإمارة
فهل ترضى الملوك عنا اليوم / وتعطي البشارة؟
إن هم تململوا ومازحوا ؟[20]

فالشاعر يستحضر تلك الحرب الطويلة، والتي أنهكت الطرفين دون استسلامهما ،فتطاوعت هذه الحرب مع حالة حاضرة وهي مواصلة النضال والدفاع عن الوطن فيوجه أي دخيل، ولو دام أطول وقت، فالحرية والأمل حليفا أي مناضل.

ثالثا: تجليات التناص في الشعر المغربي المعاصر ديوان "أحمد المجاطي" انموذجا:

1- التناص مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

لم يقتصر أثر القرآن الكريم في شعر "المجاطي" على اللفظ المفرد أو المركب، يبثه هنا أو هناك في قصائده، بل تجاوز ذلك إلى الجملة، إما باقتباس بعض التعبيرات والحفاظ عليها بألفاظها داخل النص الشعري، وإما باستعارة بعض التراكيب القرآنية، مع تغيير أو تحوير في الألفاظ، وقد يأتي ذلك في بعض الأحيان واضحا دالا على نفسه، منبئا عن طبيعته.

ومن طبيعة اللفظ المفرد، نجد الشخوص المذكورة في القرآن الكريم، وقد ذكر "المجاطي" قارون في ديوانه "الفروسية" في قصيدة "مدينتي" ، وذلك في قوله :

قارون، أين تختفي مفاتح المدينة
هناك عبر السور، خلف الأنجم اللعينة
ركبت قلبي لا جناح لي ولا سفينة
لكنه السور، فيا ويح الحروف و الوتر
يا ويح كل صيحة ماتت ولم تترك أثر

أو خيط نارسال في كنوزك الثمينة
قارون لملم من جناحيك عن المدينة
قتلتني أحلت وجه الله وحل طينة[21]

فالتناص القرآني لا يتجلى فقط في اسم "قارون" وحده، ولا الحدث أيضا، بل هو الاستعمال اللغوي الذي لا يسمح لنا بتجاوز القرآن الكريم إلى سواه، فهاهو الشاع "يستغني عن صيغة (المفاتيح) ويميل إلى الصيغة القرآنية (المفاتح)، الواردة في قوله تعالى متحدثا عن قارون".[22]﴿**وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة**﴾ سورة القصص : الآية 76.

فالشاعر يشكل رؤيته وفقا لمعنى قصة قارون، الذي مات دون أن يصنع خيرا بماله رغم ما كسبه، كذلك هو حال مدينته التي تزخر برجالها و علمائها الذين هم رموز وكنوز البلاد، فإذا لم يكونوا فعالين في مجتمعهم، مفاتيح خير و علم، ماتوا ومات الوطن من بعدهم .

أما عن التناص القرآني من حيث الجمل، فنجد أن قول "المجاطي" في قصيدة "السقوط": أقول يا أرض ابلعي ماءك أو فلتغرقي في الدم والأشلاء و الآني في اللحظة الأخيرة.[23]

فهذا أخذ واضح من قوله تعالى:﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي**﴾. سورة هود : الآية 44

وتتجلى لنا قصة موسى عليه السلام، من خلال قول الشاعر في قصيدة "الفروسية":

منتظرا مازلت أرقب العصا
تفسخ جلد الحية الرقطاء
ألقيتها على الثرى فلم تفض
أخشابها باللحم والدماء
منتظرا تفلت من أصابعي الثوان
ويستفيض البرص الأبلق في رجائي.[24]

فالشاعر يتناص مع قوله تعالى: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى ۝ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ۝ قال ألقها يا موسى ۝فألقاها**

فإذا هي حية تسعى ۞ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ۞ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ۞ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ سورة طه : الآية 17-23.

فالشاعر يريد أن يعبر عن انتظار المعجزة، وتحول الأمنيات إلى فعل، فلا يجد أفضل من موسى عليه السلام، وقد تحولت العصا في يده إلى حية تسعى، سلطانا مبينا إلى فرعون وملئه.

"وإذا كانت عصا موسى قد أصابها التحول، ونبت فيها الحياة، فإن عصا الشاعر لم تبرح خشبيتها وبرودتها، ومن وراء ذلك فإن يد موسى خرجت بيضاء من غير سوء، أما الشاعر المتعلق بالرجاء فإن البرص الأبلق قد استفاض لا في يده، بل في رجائه، وذلك مبلغ القنوط.[25]

يأتي الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القران الكريم من حيث الاستشهاد و الأخذ، لفصاحة لفظه وبلاغة قوله، ونجده يتجلى في ديوان "المجاطي" في قصيدة "الحروف" وإن صعب الإمساك به في قوله:

قاموسا تدلى خلف مكنسة

وأمعن في السكوت

هي كلمة خفقت بسبعة أحرف

وأجازها الدم.[26]

وتحيلنا عبارة "سبعة أحرف" وكلمة "قاموس" على الحديث النبوي الشريف، الذي بين تزول القرآن الكريم على سبعة أحرف.

حدثنا سعيد بن عفير قال: حدثني الليث قال حدثني عقيل عن ابن شهاب قال حدثني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس ﷺ حدثه "أن رسول الله ﷺ قال: أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهي إلى سبعة أحرف".

- قال رسول الله ﷺ: "كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه".[27]

وقد جسد الشاعر بهذا التناص حالة العرب (مكنسة)، وسكوتهم عن مساندة إخوانهم في قضاياهم، فكل طرف يرى أنه غير ملزم بقضية أخيه، فهم موحدون في الدين

والعقيدة(قاموسا)، وما نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف إلا ليجمع العرب والمسلمين كلهم على رأي واحد فلا يتفرقوا ولا يضيع شملهم، رغم اختلاف ألسنتهم فكلما ارتفعت راية الإسلام بالدماء والأرواح كذلك ترتفع راية الحرية بالتوحيد والانتصار.

لكن استعادة الحديث النبوي في النص الحاضر، جاء بطريقة اجترارية خالية من التوهج ،وتفاعل النص الحاضر مع النصر السابق، ويبدو هذا جليا من خلال توظيفه للحديث في بنية النص .

2- التناص مع الأسطورة والتراث العربي :

أصبحت الأسطورة في يد " أحمد المجاطي" أداة بناء فني، قادرة على توحيد مختلف العصور والأماكن والثقافات، لتصبح جزءا من ثقافة عصرنا، ولتغدو المعبر الأول عن كل ما يختلج في داخل "المجاطي"، من قضايا تخص الإنسانية، وعن الهم الإنساني العام، الذي أصبح "المجاطي" بطله الأول، بلا منازع، فها هو يستدعي أسطورة بروميثيوس.[28]

مقتمصا شخصية بطلها سارق النار، الذي سرق النار من الشمس، وقدمها إلى البشرية متحديا بذلك الآلهة التي لم تتركه من دون عقاب، يقول الشاعر في قصيدة "كبوة الريح":

عود بأشلائي، دمي لم يبتسر طريقه
من مده للفجر يدا يستعجل الوصول؟
من شد عند صخرة ظنوني؟
ومد منقارا إلى عيوني؟
با سارق الشعلة إن الصخب في السكون
فاقطف زهور النور، عبر الظلمة الحرون.[29]

ويلحظ المتلقي أن شخصية "المجاطي" قد اتحدت مع شخصية البطل الأسطوري بروميثيوس ، حيث تلتقي هاتان الشخصيتان في كونهما تحملان شعلة الضياء، التي تنير للبشرية دربها وتهديها الطريق القويم.

فالمجاطي -كما بروميثيوس- سرق النار ليعيد للإنسانية نبض الحياة، وقيمة الكلمة في زمن ضاعت فيه المبادئ والمثل والقيم، وفقدت فيه الكلمة قداستها وحريتها، وقد

استدعى "المجاطي" أسطورة "سيزيف"[30] بشكل مباشر من خلال استحضار شخصية سيزيف بطل الأسطورة، التي هي رمز للعمل غير المجدي، والألم المستمر والعذاب غيرا لمنتهي، حيث إن الآلهة قد كتبت على سيزيف أن يتحمل العذاب والألم والقهر، بمواصلة دحرجة الصخرة إلى الأعلى، حتى إذا وصلت الصخرة إلى القمة انحدرت، و هكذا يعود سيزيف إلى دحرجتها في دورة مستمرة إلى الأبد، يقول "المجاطي" في قصيدة "مدينتي":

وغربتي صرخة سيزيف رمى به القدر
في حلبة كبت جياد الخيل عند سوحها
مدينة أفرخ ليل الثلج في سفوحها
ولم تزل من ظمأ تشرب من جروحها.[31]

ونلاحظ هنا أن الشاعر قصد نفسه هو، من حيث تحمله لآلام الغربة ولقد أخذ "المجاطي" من أسطورة "سيزيف" فكرتها الأساسية، التي تدور حول معنى العذاب والآلام التي يواجهها الإنسان. وحاول إسقاط مغزى تلك الأسطورة على مدينته.

من أهم المصادر التاريخية البارزة في ديوان المجاطي "الفروسية" توظيف الشخصيات، إذ نلاحظ توظيف شخصية "طارق" في قصيدة "سبتة" يقول:

و آتيك عينيك لون سهادي
وحزن صهيل جوادي
وأمنح عينيك صوله طارق
وأسقط خلف رماد الزمان
وخلف رماد الزوارق.[32]

نجد هنا استثمارا صريحا لشخصية تاريخية تركت بصمات مشعة في التاريخ العربي، بما صنعته من بطولات وأمجاد، وهو -هنا- بمثابة الأنموذج المثال الذي يجب إتباع نهجه و اتخاذه قدوة لتحرير المدينة المحتلة (سبتة)،

لكن المتلفظ بالخطاب لا يمتلك المؤهلات الكفيلة لتحيق المراد، لذلك (يسقط خلف رماد الزوارق).

لعب التراث الشعري القديم دورا فعالا في توجيه الشعراء، إلى مكامن القوة في الشعر بقراءته واستخلاص العبر والأحكام من صياغاته، ونجد هنا "المجاطي" يستخلص بيتا للمتنبي في بناء قصيدته: "من كلام الأموات" ويبني عليه معنى قصيدته إذ يقول:

ليس من مات فاستراح بميت

إنما الميت ميت الأحياء

(المتنبي)

أنا المنسي عند مقالع الأحجار

وتحت الصخرة الصماء، تأكل من شرايبني

مسامير الدخان، أكاد لا أصحو ولا أغفو.[33]

فالإنسان الذي لا يصنع شيئا في حياته، يميزه عن الحياة العادية التي يحياها بنو جنسه لا حياة له، ميت لأنه يعيش جانبها الحيواني ، لا إبداع فيها ولا اجتهاد، وإن مات فلا يجد ما ينتفع به في آخرته، لأنه ذهب فارغ اليدين.

كذلك - عند الشاعر - فالإنسان الذي لا يقدم التضحيات، ولا المساعدات من أجل بناء وطنه واستقلاله كالميت الحي، الذي موته في حياته، فلا يسعى لأن يجعل حياته وسعادته في موته.

خاتمة:

خلاصة القول في الموضوع أن نظرية التناص تستبعد النظرةا لمثالية في خلق النصوص، فليس النص الأدبي وحيا أو إلهاما يتنزل على الأصفياء من بني البشر فيتفرد، أو تأليفا لغويا أوحت به ربات الفن أو شياطين وادي عبقر،ومن ثملا يعرف أبا أو جذرا ينتسب إليه،ولكنه نسيج لغوي مكتنز بشتى الثقافات ومشبع بخلفيات نصية متعددة ومتنوعة، إنه تفاعل نصي خلاق، يقيم علاقات تناصية مع خطاب التواصل الشفوي اليومي، ومع الرموز، والإشارات التاريخية والأقوال المأثورة، وأنواع الخطاب الشعري، واللوحات الفنية،والقطع الموسيقية،والأفلام...كل هذا المخزون الثقافي يتفاعل معه الشعراء، ويحيلون إليه بعد أن خبروه واستوعبوه.

يبدو الخطاب الشعري المغاربي الحديث قبل الاستقلال منغلقا على نفسه،يتداخل صراحة مع بعض ماتيسر له من معارف تراثية، ويتفاعل معها بطريقة اجترارية، ومرد ذلك إلى العزلة الثقافية والجغرافية التي فرضها الاستعمار الفرنسي.

وعرف الخطاب الشعري المغاربي المعاصر بعد الاستقلال جملة من التلاقحات الثقافية، والتفاعلات النصية، على الصعيدين التشكيلي والدلالي ، فكان هذا الانفتاح على أكثر من مستوى، انفتاحا على المستوي الأسطوري والتاريخي، وعلى نصوص القرآن والحديث النبوي الشريف.

ونجد أن تناص الشعراء المغاربة يعكس صورة تفاعل شائقة من صور النصوص، نتيجة تشكله من أمشاج من النصوص المتداخلة، كان تناصا متنوعا يحث المتلقي ويحرضه على الاطلاع، وقراءة تلك النصوص الغائبة..

ان العديد من النصوص الشعرية المغاربية المعاصرة متداخلة عن قصد أو عن غير قصد مع نصوص ابداعية أخرى متزامنة معها، تولد عن هذا التداخل تقاربا لغويا على مستوى المعجم الشعري، وتداخلا دلاليا كبيرا له أسبابه الخارجية ومسوغاته الفنية.

الهوامش:

1 محمد السبوعي: قمر مدهش في بهائه، نصوص شعرية، الوكالة المتوسطية للصحافة، الريشة الذهبية، تونس، 2001، ص 21.

2 أمير عبد العزيز: التفسير الشامل للقرآن الكريم، مجلد6، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2000،ص3600.

3 محمد السبوعي: قمر مدهش في بهائه، ص 28.

4 المرجع نفسه : ص 69.

5 محمد العبد حمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1996 ، ص 156.

6 محمد السبوعي : قمر مدهش في بهائه، ص 21.

7 شادية شقروش : الخطاب السردي في أدب إبراهيم الدرغوثي، دار سحر للنشر، تونس، ص 66.

8 محمد السبوعي : قمر مدهش في بهائه، ص 53.

9 المرجع نفسه : ص 68.

10 أحمد الهاشمي : جواهر الأدب (في أدبيات وإنشاء لغة العرب)،مراجعة يوسف الصميلي،ج2،المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2003،ص28.

11 يوسف شقرة : طقوس النار والمطر، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومه،2002،ص40 .

12 أمير عبد العزيز: التفسير الشامل للقرآن الكريم، ص3463.

13 يوسف شقرة : طقوس النار والمطر، ص71.

14 جمال مباركي : التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة إبداع الثقافة ،دهر هومة ،الجزائر، ص 173.

15 يوسف شقرة : طقوس النار والمطر، ص 58.

16 مجلة البيان : أحمد طعمة حلبي، الأسطورة والتناص في شعر البياني، العدد 429، سوريا، أبريل،2006،ص 51.

17 أحسن مزدور: مقاربة سيميائية في قراءة الشعر والرواية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005 ، ص 40.

18 يوسف شقرة : طقوس النار والمطر، ص 24.

19 المرجع نفسه : ص57.

20 المرجع نفسه : ص 25.

21 مجلة المشكاة : ديوان أحمد المجاطي، الفروسية، العدد 24، الينة6، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996 ، ص 92.

22 المرجع نفسه : ص 41.

23 مجلة المشكاة : ديوان أحمد المجاطي، ص 106.

24 مجلة المشكاة: ديوان أحمد المجاطي ، ص 99.

25 مجلة المشكاة : ديوان أحمد المجاطي، ص 42.

26 المرجع نفسه : ص 122.

27 أبي محمد عبد الله بن اسماعيل البخاري : صحيح البخاري الجامع الصغير، ج1، المكتب الجامعي للحديث، الاسكندرية، ص 282،281.

28 "بروميثيوس" أسطورة إغريقية ملخصها : أن سلطة الآلهة على البشر والعبث بمصائرهم، إنما أتتهم من شعلة النار المقدسة التي استأثر بها هؤلاء الآلهة وحرموها بني الإنسان، حتى جاء الفتى"بريميثيوس" الذي غامر بحياته في عالم الآلهة، وسرق منهم تلك الشعلة وأهداها إلى بني جنسه من البشر، كي يعتمدوا عليها في الدفاع على أنفسهم، وقد تفطنت الآلهة لهذا الفعل المثير، ولم يعد في استطاعتهم استرداد تلك الشعلة بعد ما ذاع خبرها، و انتشر بين الناس، فقرر إله الحرب الجبار،"جوبيتر" بأمر من"زوس" معابقبة الفتى "بروميثيوس"، فشد وثاقة إلى صخرة بجبال "القوقاز" وراح يسلط عليه نسرا ينهش كبده أبدا، فلا تكاد كبده تفنى حتى تجدد، ليظل "بروميثيوس" في العذاب المقيم.

ينظر: جمال مباركي : التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، ص 221.

29 مجلة المشكاة : ديوان أحمد المجاطي، ص91.

30 ملخص الأسطورة : " أن الآلهة حكمت على سيزيف ملك كورنثة بتصعيد حجر إلى أعلى الجبل، ولبلوغ هدفه هذا تعرض إلى مشقة كبيرة، فكان كلما صعد بالحجر الى ذؤابة الجبل ونزل منه، فإن الحجر الضخم يتدحرج وراءه ويهبط، وكان يعيد الكرة إلى ما لا نهاية، وقال البعض الآخر: إنه ارتكب عملا محرما، وهو الإفشاء بالأسرار الإلهية، لذلك تقول الأسطورة أن زيوس أرسل إليه "تاناتوس"إله الموت، لكن سيزيف نجح في تقييده، إلى أن جاء يوم أجبر فيه زيوس سيزيف على الإفراج عن "تاناتوس" ونقل سيزيف إلى الجحيم، وعاش بعد ذلك أعواما عديدة قبل أن يعاقب على جرائمه"، وهذه الأسطورة يوظفها الشعراء ويرمزون بها إلى المعاناة الأبدية.

ينظر جمال مباركية: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، ص225.

31 مجلة المشكاة : ديوان أحمد المجاطي، ص 92.

32 المرجع نفسه : ص 110.

33 المرجع نفسه : ص 96.